في الأدب الأميركي : صور أدبية لأعلامه

جايمس رسل لويل

محمد عبد الغني حسن

لم تحتل أميركا قبل بزوغ شمس القرن التاسع عشر مكاناً رفيعاً في عالم الأدب العالمي . فقد كانت قبل ذلك طفلة في الوجود لا ماضي يتصل به حاضرها ، ولا قديم يرجع اليه حديثها . ولما شبت عن الطوق وكادت تستوي على قدميها شغلتها حروب استقلالها

ولم يجرؤ أحد في تلك الأيام أن يثني على شاعر أميركي او يقدر مواهبه . ولعلّ شعراء كثيرين ظهروا في هذه الفترة إلا أنهم كانوا مغمورين كشعراء ما قبل العصر الجاهلي في الأدب العربي . حتى جاءت مجلة « ادنبره » فتكفلت بتقديم الشعراء والكتّاب الناشئين الى قرائها

ولعلّ أغنى مقاطعات الولايات المتحدة بالكتّاب والشعراء الطبيعيين هي منطقة ولايات « انكلترا الجديدة » . فهناك على الصخور العالية بولاية « هامشير الجديدة » وعلى شاطىء نهر « ميرماك » الجميل كانت الحياة زاخرة بالحركة الدائمة . وكانت تتجاوب في أجواء هذه الولاية أصداء متباينة ، ترسلها أجراس المصانع وحلقات المعامل المشيدة حديثاً ، وكانت الحلبة تزداد كل يوم تبعاً لتزايد حركة البناء . . . وتعالت في السماء أبراج الكنائس . وتزاحمت في الأرض القصبات والقرى والمدائن . وأخذت هذه الولاية الناشئة سبيلها في الحياة الجديدة للعالم الجديد بسرعة وعناء . ومن عجب أنه بجانب هذه الحركة المادية الصناعية البارزة لم تظهر حركة عقلية تسايرها وتحاذيها . فهنا النهر الجميل الذي بمناظره الساحرة ولكن ليس على شاطئه شاعر . . . وهناك الغابة الكثيفة او الخفيفة ولكن ليس بين جراجها متأمل . . . وهنا أجناس من الخلق مختلفة ولكن ليس فيهم مؤرخ يقص تاريخهم او يسجل حياتهم

وكأن أصوات هذه الضوضاء الماجة ، والحلبة الصاخبة ، والمشاغل المادية ، حركت بعض العقول من سباتها ونبهتها الى جمال الهدوء في ظل الأدب ، والسكون في خمائل العلم فانتشرت المدارس وظهرت الجرائد . واشتهرت بوسطن وكامبردج بمدارس [illegible]

وكانت هذه المدارس على تعدد مراحلها وتقدم طرائق التعليم فيها وضعف [illegible] صاحبة الفضل الأول في تغذية الروح الأدبي في هذه الناحية . وتعاقبت السنون و [illegible] جديدة تشق في

سبيل النهضة العلمية الأدبية بخطى سراع . ولم يبزغ القرن التاسع عشر حتى كان فيها جماعة من الرياضيين والعلماء أمثال «يوسف ستوري» و«وليم برسكوت» و«بكرنغ» المشترق الفلكي والمسوي الذي أعد عشرين سنة «وبودتش الرياضي»

وأخذت شهرة انكلترا الجديدة ترتفع بسرعة عجيبة في عالم الأدب وأتاحت لها الأقدار السعيدة أن يجتمع فيها في النصف الأول من القرن التاسع عشر جماعة من أعلام الأدب الأميركي ، ولدوا فيها وشبوا ونشأت بينهم وشائج وثيقة . ووضعوا النواة الأولى في كنز أدب أميركا . كما وضع الخامسون النواة الأولى في كنز أدب العرب . وأصبحوا نجوماً ساطعة في سماء الأدب العالمي يقرأ لهم ويحفظ عنهم ويقتدى بهم . وفرضوا على العالم — وكان بالأمس معرضاً عن أميركا الأدبية — أن يستمع إلى الهام شعرائها ووحي كتابها ونتاج أدبائها . وعلى رأس هذه الجماعة ، لونج فيلو وأمرسون وثورو ، وقد تحدثت عنه في مقتطف يناير سنة ١٩٣٩ ودانا «الابن» ولويل وألكوت

* * *

وحديثنا اليوم عن جايمس رسل لويل . وقد ثنينا به الحديث عن هنري ثورو لأنهما شربا من نبع من الطبيعة واحد . فهما إباها الغارقان في بحرها اللجي . الراشفان من حلاوة خمرها . وإذا كان ثورو قد خرج إلى غابة «والدن» وغديرها . وعاش فيها أكثر من عامين بعيداً عن الناس : مؤتنساً إلى طيرها الساجع وسمكها السابح أو عطرها الفاغم : فإن لويل اتخذ من شباك غرفة مطالعته مرقباً يطل منه على حديقة يلاحظ أشجارها ، ويراقب أطيارها ، ويدوّن أخبارها وآثارها

نشأ لويل في كمبردج الأميركية وهي مهد كثير من الأدباء . فكان أذكى شبابها وأكثرهم توقد ذهن ، وحضور بديهة ، وقد أدرك هو نفسه هذا الذكاء فدخله شيء من الزهو والغرور . وكانت نيران الفتنة لا تحول بينه وبين أترابه . إلا أن شيئاً من خفة الروح الكامنة فيه كان يلطف حرارة هذه النيران . ولقد بدأت طلائع نزوعه الأدبي تظهر في صباه . فهو ميال إلى الكتب نهم إلى قراءتها . وهو محب للأزهار هائم بها وهو يضيف إلى ذلك ملامح السرور البادية على وجهه حيثما تراه يقرأ أو تسمعه يتكلم أو تشاهده يدخن . ولكن شيئاً من كسل الشعراء ملازمه . فهو يستطيع أن يطرح على ظهره أياماً طويلة غارقاً في أحلامه لا انتباه لها أو سابحاً في ديوان من الشعر وصالما عاودته نوبات غريبة كان يغيب فيها عن حسه ويذهب في عالم بعيد ... وما أكثر هذه النوبات حينما يتفتح شعر يونيو في أميركا عن عاصفة من أزهار الصيف . وكذلك أشبه صاحبنا «دانا» الابن في معاودة هذه النوبات

عاش في منزل ريفي كبير نشأ لويل . وهو منزل يطل على غياض واسعة وحقول مترامية يتسمح في الصيف رائحة الشيم الذي يلقطه «لويل» عابثاً به بين أصابعه وكانت تحت الآنسة

ماري لويل تقرأ له في الحقل أشعار شكسبير فينام على أقدامها ، كأنها ترانيم المساء ... وكانت هذه السنة أدبية صابية فهي عيد اثنتي عشرة لغة ، أضافت اليها لغة المجر وبولونيا

ولقد ساعدت الظروف مجتمعة على تنشئة « لويل » تنشئة أدبية ، فمنه كما عرفت أدبية لغوية ، وأبوه يملك مكتبة تزخر بالنفيس من الكتب ، وشباب كامبريدج من أتراب لويل وندائه اشتهروا بذوق أدبي خاص ، والطبيعة من حوله ساجية جميلة حتى في ساعات عبوسها ... ! والظروف كلها موانية فلم لا يقرأ ؟ ولم لا يفهم ما يقرأ ويستوعبه ؟ ولم لا يعلق على ديوان هذا أو كتاب ذاك ؟ وفوق ذلك ان الطبيعة أمامه سفر مفتوح وكتاب مسطور فلم لا يقلب طرفه فيها

هذه خزانة أبيه عامرة بالكتب ، فاليوم لسقراط ، وغداً لأفلاطون ، وبعد غد لسنكا الحكيم ، وكانت طلاقة لسانه في اللاتينية لا تقل عنها في الانكليزية ، فاذا بدأ الكلام لم تبهر أنفاسه ، ولم يعتبس لسانه ، وكان دقيق النظرة كما كان دقيق الفكرة ، وكذلك شأن شعراء الطبيعة وكتابها ، فما مرت حادثة في حديقة الا سجلها وعلق عليها والتمس لها تأويلاً وتفسيراً ، ولا قامت معركة بين طائرين الا شاهد حوادثها وعرف تفصيلها ، ولا حط غراب ابشرب الا عد كم مرة بال ريشه وكم مرة ألق منقاره ، وكان أبوه يأخذه الى مخزن الغلال براقب الطيور المهاجرة قبل أن تشد رحالها وتزمع رحيلها ، وكان لا يبالي ان يقف الساعات الطوال يستمع الى تغريدة من طائر الى أليفه ، ولم يمل أيضاً أن يسهر الليل ليسمع طائر الكوكو (وهو يغني كما تدق الساعة السويسرية)

ومن شباك غرفته المطلة على الحديقة ، ثم من ذلك الشباك العتيق ذي الطراز الأول كتب لويل كتابه « من شباك غرفة مطالعتي » ، وكان أول فصل من فصول الكتاب وصف بديع « لمعاونيه وأصدقائه في الحديقة » ومن غير طيور الحديقة أول صداقة لويل ومعرفته ؟ لقد وصفها وهي تختلس حبات التوت او تلتقط حبات الفراولة ، وصفها وهي تحط جماعة وتطير جماعة ، وصف جماعة منها (وهي تفني كشاد النار حول النار — في غير انسجام ولا تساوق)

وليس الكتاب كله صورة للطبيعة ، أو وصفاً للحديقة ، ففيه فصول تناول فيها تراجم الذين قرأ لهم أو عرف أدبهم ، فهناك فصل ممتع عن « ابراهام لنكولن » وآخر عن « جامس برسيفال » وثالث عن هنري ثورو معاصره ، ورابع عن « تشوسر » الانكليزي ، وخامس عن « بوب » فهو نوع من كتب النقد الأدبي تجلت فيه مواهب لويل وعبقريته وسعة اطلاعه وقراءاته

تتلمذ لويل على امرسون وتأدب بأدبه ، وكثيراً ما ذهب الى « بوستون » ليسمع محاضرة منه أو يثير مناقشة معه ، وكثيراً ما اخذه امرسون الى « صخور الشاطيء » يقطعان الطريق في حديث طويل ، ولقد أعجب التلميذ بمعلمه وأحبه واستشهد بكثير من عباراته وكان نجمها اليه

تون امرسون أن غرفة المطالعة قد غصت جدرانها وحوائطها بكتب غير مستقيمة ولا واضحة، قد شغلت من حجمها و صحتها للقراءة فستمن بسبب شمة

على أن لويل كان ذكياً . ويتكبر هذا الذكاء الخارق ، يقعد به عن العمل والنشاط . فكان دمويًا كالنحلة — إلا في ساعات كسله الشعري — صابراً على الجهد المتصل والعمل المستمر وكان فيه ميل إلى التقدم ولم يكن ميلاً إلى الخمود أو الرجعية . وإنما هو ميل الى الاعتزاز بالماضي والاعتداد بالتراث . فطراز بيته قديم . ومقاعده عتيقة الطراز وهو يخطو دائماً الى التقدم من وده . والأول من صداقته ويؤثره على الطريف

ولكن لويل كان متناقضاً في ظواهره وقد حير تناقضه هذا كل من اتصل به فهو حار القلب تارةً وبوده تارةً أخرى . وهو صوفي في بعض أشعاره ولذاذي في بعضها، وهو يعطيك الحلاوة من طرف لسانه إذ تفتنه وإذا غبت راغ منك كما يروغ الثعلب . . . كان غريباً في مناقشاته ومحاوراته فهو حريص دائماً على أن يكسب الموقعة ولو كان خاسراً . حريص على أن يكون الظافر في الجدل ولو لم يكنه . . . وقد يتخذ من حركات يديه ووجهه ما يعينه على ذلك . فإذا انتصر على خصمه ابتسم ابتسامة ماكرة ثم اعتذر عما بدا منه في أثناء الجدل بأنه صنعه لأول مرة في حياته . ولم يكن بين لويل ولونغ فيلو الشاعر معرفة حتى سنة ١٨٤٦ فقد تراكن منهما لصاحبه ولكنهما فيتلاقيا وفي ذلك العام جمعت الاثنين غرفة واحدة هي غرفة لويل المهودة . فتضم دارت بينهما الأحاديث وطال الكلام، وكانت حركة منع الرقيق موضوع الحديث . ولا عجب إذا تحمس لويل لمنع هذه الرذيلة اللاانسانية . فالدم الديموقراطي يجري في شرايينه وأوردته وزوجته الشابة « ماريا هوايت » شاعرة رقيقة الحس مرهفة الشعور حرة الفكر، وهي فوق ذلك تلميذة « مارجريت فولر » إحدى حرائر أميركا وأنصار الحرية فيها

هذا هو لويل الكاتب أما لويل الشاعر فقد عالج أنواع الشعر كلها من أغانٍ وأهازيج الى ملاحم . وله دواوين — لولا خشية التطويل — لنقلنا أمثلة منها ولكنها في متناول من يريد الحصول عليها ولكن شعره يمتاز باللون الغزلي والذوق الموسيقي . والمهارة التكوينية او ما نسميها نحن جودة الرصف . ولا يقل في شعريته عن تنسون أو هود و غيرهما . ولكن شهرتهم فاقت شهرته . لأنه في ميدان إلاهة الشعر شوط بعيد . . . ولعل مما ضيع شهرته في الشعر انه كان من مذهب ممتاز . ولم يكن أصيلاً مبدعاً . حتى بلغ شأنه معظم شعراء الغالين . فهو في أغلب شعره عين من قرأ لهم

ولا نسى شهرته التي ساقها « لونغ فيلو » معاصر « لويل » فقد كانت عاملاً من عوامل خفائه كمن ظهر من شعره في عصره وفي هذا يقول الشاعر العربي

« في طلعة الشمس ما يغنيك عن زحل »